

فبشر عبادي الذين يستمعون القول
فيتبعون احسنه اولئك الذين هداهم
الله واولئك هم اولو الالباب

المحجرات

١٣١٥

يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت
الحكمة فقد اتى خيراً كثيراً وما
يذكر الا اولو الالباب

(قال عليه الصلاة والسلام : ان للاسلام صوتي و«مناراً» كمنار الطريق)

(مصر في يوم الاربعاء غرة شعبان سنة ١٣١٩ - ١٣ نوفمبر (ت ٢) سنة ١٩٠١)

الشعور والوجدان . وشعائر الامر والاديان

ينبث المرء الى العمل بشعوره ووجدانه ، اكثر مما ينبث بفكره
وبرعانه ، وبالمعمل يسعد ويشقى . وبالمعمل يموت ويحيى ،^(١)
تأثير الشعور والوجدان ، اقوى في النفس من تأثير العقل والجنان ،
بل لاتنفذ احكام سلطان العقل في مملكة البدن الا بواسطة الشعور النفسي
بالحاجة الى ما حكم به لدفع ألم او تحصيل لذة فكان الشعور وزير التنفيذ
لسلطان العقل وكثيراً ما يستبد هذا الوزير على ذلك السلطان اجابة لداعي
عمال الحواس والمشاعر فيزعج الجوارح الى العمل بدون استشارته فتخسر
الاعمال ، وتخب الآمال ، ويسوء المصير والمآل ،
نهي بالشعور ان تحس بألم الحاجة الى الشيء ، أو بلذته وبالوجدان ما تجده في
نفسك من ذلك الألم الذي يدفعك الى العمل بما يقتضيه او اللذة الداعية الى
المدامة على العمل فالمراد بهما واحد ولذلك نكتفي بأحد اللفظين احياناً . ويعبر

(١) راجع العدد الرابع من المجلد الاول

الصوفية عن هذا المعنى بلفظ (الحال) ومن أصول طريقتهم تربية الحال بما ينفخون من روح التأثير بمقيدة من العقائد او فضيلة من الفضائل في المرید فينبعث الى العمل الذي هو أثر المقيدة او الفضيلة بوجدان صادق ويبلغ فيه ما شاء الله ان يبلغ حتى يكون ملكة راسخة في النفس وهي ما يسمونه (المقام) . يقولون حال التوكل ومقام التوكل وحال السخاء ومقام السخاء . واذا كان المقام عند الصوفية عبارة عما يسميه علماء الاخلاق من غيرهم خلقاً وملكة فهو اذن ما تصدر عنه الاعمال بلا روية ولا تكاف

العمل بمقتضى الحال والوجدان يحتاج الى الفكر في طريق العمل ومقدماته ثم يرتقي الانسان فيه مع التكاف والتأثر الى هذه الدرجة التي يصدر فيها العمل بلا تكاف ولا انفعال ولا ترتيب مقدمات ولكنه مع ذلك يشعر بأنه متمكن من ذلك المقام ويشكر في آثاره الحسنة فاذا غاب عنه هذا الشعور والفكر فصار لا روية ولا روية وانما هي اعمال كالانفاس وحركات الجفون فتلك نهاية الكمال في المقام . والشيوخ محيي الدين بن عربي يعبّر عن هذا بمقام الترك فيقول مقام التوكل ومقام ترك التوكل ومقام الصدق ومقام ترك الصدق وانما يعني ترك شهوده وتلك غاية الكمال - يصدق المرء من غير شعور سابق يدفعه الى الصدق عند كل فرد من افراده وبدون فكر في مقدمات الصدق ونتائجه ولا ملاحظة لتلبسه بهذه الفضيلة ولا إعجاب بها وبآثارها وليس محالاً ان يرتقي الانسان في التهذيب الى أن تكون الاعمال الحسنة منه كحركات الجفون لا يشكر فيها ولا يشعر بها الا اذا ذكره مذكر او نبهه منبه

تلك درجات مرتبة ، ومراتب متعاقبة ، فالشعور والحال ، ثم

الملك والمقام ، ثم الرسوخ والاطمئنان ، حتى لا شهود ولا عيان ، الا ما كان كومة برق ، او نبضة عرق ،

كيف ينفخ المربي روح الشعور النافع والوجدان الشريف في النفوس ليعرج بها الى جنات الفضائل العالية ، حيث تعيش العيشة الراضية ، ؟ يقول الامام الغزالي ان العلم هو الذي يحدث الحال في النفس والحال هو الذي يحدث العمل وعلى العمل مدار السعادة ، ويقول ان الترتيب بين هذه الثلاثة واجب لا يتخلف بمقتضى اطراد سنة الله تعالى في الملك والملكوت . وزى اكثر علمنا بل اكثر الناس يقولون ان العلم لا يوجب العمل وقد نازع حجة الاسلام بلنظ (وجب) بعض من يوصف بالامامة من العلماء الذين لم يفهموا كلامه لتقيدهم بالاصطلاحات الكلامية . وقد صرح هو بانه يريد بالعلم اليقين بأن هذا الشيء ضار او نافع ولا شك ان اليقين او الرجحان عند تعارض اعتقادين في النفس هو الذي يملك على النفس أمرها ويبعث فيها وجداناً يزعمها الى العمل . وانما نظر القوم الى العلم التصوريّ او التصديقي الضميف الذي تتنازعه الشكوك وتمازضه تصورات او تصديقات اخرى هي اقوى منه فلا يصدر عنه اثره وانما يصدر الاثر عن الراجح القوي كما اوضحناه في مقالة عنوانها تأثير العلم في العمل (راجع العدد الثاني من المجلد الثاني)

ما قاله الامام الغزالي صحيح ولكن العلم الصحيح اليقيني بالمنافع والمضار والمصالح والمفاسد عزيز في البشر لا سيما مصالح الامم والملل . ثم ان ابداعه في النفوس بالتعليم على وجه يوجب تأثير التقاليد والمعادن ، والتأثر بما يتناقه من المسموعات والشاهدات ، أعز واعز ، واقل

وأندر ، فلا بد من تعزيز التعليم بالتربية العملية . بل التربية هي الأصل والتعليم يمدتها وينمّيها ، وثمرتها وينمّيها ، وهذه الطريقة طريقة الدين فإنه بعد ان أشعر النفوس عظمة الله وسلطانه ، وفضله واحسانه ، شرع للناس اعمالاً ووضع لهم شعائر ، كان لها السلطان الاكبر على القلوب والضمائر ، فكان إحياء وجدان وشعور ، وبعث هم ونشور ، مقروناً بتعليم قويم ، يهدي الى الحق والى طريق مستقيم ،

شرع الدين لإسعاد الافراد في انفسها ، وإسعاد الشعوب في مجموعها ولذلك كان بعض اعماله عبادات تتعلق بهذيب الأفراد وبعضها شعائر تتعلق بالاجتماع كأعمال الحج والعيدين وصلاة الجمعة والجماعة . وقد كان لهذه الشعائر تأثير عجيب في الحياة المليئة الاجتماعية حيث لم تكن رسماً صورياً يؤدي كما تؤدي المفارم والديون على ما هي اليوم . وانني لا انسى ذلك الشعور الاسلامي الذي كان يسوقني وأنا ابن بضع سنين الى مسجد البلد الجامع لحضور صلاة التراويح وصلاة الفجر ولحضور الوعظ بعد العصر في رمضان ولا انسى تلك اللذة الروحية في اجتماع الناس لهذه العبادات وامثالها لا سيما ارتفاع اصواتهم بالتكبير قبل صلاة العيد - الله اكبر الله اكبر الله اكبر . لا اله الا الله والله اكبر ، الله اكبر ، والله الحمد

هذا الشعور الذي يجده الصغير في نفسه بمقتضى الفطرة يفقده بعد ان يمتاد هذه الاعمال من غير فهم الا أن يتماهد بتربية تجدد عنده في كل طور من اطوار العمر فهما في هذه الشعائر يبعث فيه شعوراً يلبق به . ولولا أن من الله تعالى عليّ منذ تعلمت القراءة والمطالعة بعشق كتاب احياء تلوه

الدين الذي هو اعظم كتب علماء الاسلام تأثيراً في النفوس لصارت العبادة عندي عادة لا تأثير لها وانما صرحت بهذا ليكون ارشاداً فعلياً الى الانتفاع بهذا الكتاب وان كان يوجد فيه ما أود حذفه منه ليكون نفعه عاماً

ومن البلاء العظيم الذي نزل بالمسلمين التقصير في اقامة شعائر الاسلام على اصلها والتوسل بها الى احياء الشعور الملية فقد نزع روحها اولاً ثم طرأت الامراض على صورها فغيرتها حتى عافها المترفون واعرص عنها الاكثرون . وكان الشعائر التي تبعث الشعور وتحرك ساكن الوجدان اصراطيمي في الامم ولذلك لم يلبث المسلمون بعد ضعف شعائرهم ان استبدلوا بها شعائر اخرى سرت اليهم من الامم المخالطة ولكنهم صبغوها بصبغة دينهم ولوتونها بلون شرائعهم وهي الاعياد والمواسم التي يحتفلون بها عند قبور الصالحين وفي بعض الايام الفاضلة فلهذه المواسم تأثير كبير في نفوس العامة وهو شعور ديني لا ينكر ولكنه غير اسلامي وابعدها من الاسلام اشدها تأثيراً وهو ما يسمونه الموالد (راجع باب البدع)

اتبع المسلمون في هذا سنن من قبلهم في الابتداع فان المسيحيين تركوا اعياد اليهودية وهي ديانة المسيح واتخذوا لانفسهم اعياداً اخذوها عن الوثنيين فان عيد الميلاد المسيحي لم يعرف عندهم الا في القرن الرابع بعد المسيح . وعيد ميلاد صريم اختلف فيه فقيل ابتدع في القرن الخامس وقيل في السابع وقيل في التاسع وقيل في الحادي عشر . وعيد الشهداء لم يعرف الا في اواخر القرن الرابع فكانوا يقرأون قصصهم وتؤدي عندهم فرائض العبادة وتذبح الذبائح ويولم الاغنياء الولاثم فيأكلون ويشربون ويلعبون ويلعبون . وأما عيد الرسل فلا ندري متى ابتدع ولكن له

ذكرآ في حوادث القرن الرابع وكانوا يختلفون به في رومية عند قبري بطرس وبولس

قلنا ان النصارى اخذوا اعيادهم هذه عن الوثنيين ولو توها بلون دينهم وهذا القول قد صرح منهم به كثيرون من رجال التاريخ ورجال الدين وصرحوا بأنهم كانوا يعبدون الشهداء والرسل وان ذلك سرى فيهم بالتدريج كما قال يوسوب في تاريخ الماسيكين . وجاء في قصة حياة غريغوريوس توماتورغوس : ان غريغوريوس لما رأى الجماهير الجهلاء البسطاء متمسكين بأصنامهم لما فيها من اللذات الحسية أذن لهم في اعياد الشهداء القديسين أن يتلذذوا ويتنعموا رجاء ان ينقلوا بعد ذلك باختيارهم الى حياة حسنى وطريقة مثلى . وفي (ريحانة النفوس في الاعتقادات والطقوس) : « ان الذين انحازوا من عبادة الاوثان الى الديانة المسيحية إذ وجدوا بعض أمور في اعياد الشهداء تشبه ما كانوا معتادين عليه في اديانهم الأولى فقد نقلوا اليهم ذلك الاكرام الذي كانوا يقدمونه لآلهتهم »

لولا وجود في النصارى من يأول لهم عبادة الشهداء ونحوهم لما انتشرت فيهم وعمت بلادهم . واننا نذكر عبارة من تلك التأويلات لاجل تطبيق الحديث الشريف . قال اغوستينوس : انا نتعلم ان نكرم الشهداء لا ان نعبدهم بل انما نعبد الله وحده الذي تعبده الشهداء لانه لا يجب ان نكون مثل الوثنيين الذين نحزن عليهم لانهم يعبدون الموتى من الناس . ثم اوضح هذا بقوله : انا لا اتخذهم آلهة ولا نعبدهم كآلهة فاننا لا نعطيهم هياكل ولا مذابح ولا ذبائح ولا يقدم لهم الكهنة القرايين حاش لله فان هذه الامور انما تعمل لله فقط اه . اقول لكنهم باسم التنظيم

والتكريم الذي اذن فيه وجوزه قد قدموا لهم الذبائح وعبدوا عبادة حقيقية وان لم يسمها بعضهم عبادة . وهذا هو السبب في تشديد النبي صلى الله عليه وسلم التكريم على تعظيم القبور واتخاذها اعياداً . ولكن هي سنة الكون تنتقل الماديات والتقاليد من بعض الملل الى بعض كما في الحديث الصحيح « لتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع . قالوا يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال فمن ؟ »

تقلد الامم بعضها بعضاً في الشعائر الدنيوية أيضاً فان اهل الغرب اتخذوا لملوكهم اعياداً لاحياء الشعور الوطني الذي يمثله رئيس الدولة في الملكية . وللدول الجمهورية منهم اعياد باسم الحكومة التي يعترفون بها ويميزونها . وقد قدم الشرقيون في الاحتفال بأعياد ملوكهم وأصراهم لارضائهم اذ كانوا لا وطن لهم ولا وطنية ، ولا دول عزيزة بملوكها قوية ، ولا شك ان هذه الاعياد شعائر تبث الشعور بحب السلطان او الامير في نفوس الذين يتفقدون فيه النفع للدولة والامة فينتفع بهذا المستبدون ، ويفتخرون به المفترون ، حتى باتهم المذاب من حيث لا يشعرون يبلغ الشعور في افراد الامم العزيزة الحرة مبلغاً يعد من الخوارق في نظر الامم المريضة المستعبدة فقد كثر في هاتين السنتين عدد المجانين في انكسارها وقال نطس الاطباء ان سبب ذلك الانفعال الشديد لحدان الدولة في حرب الترانسفال . وما دفع البوير الى الاستبسال في ساحات الوغى الا الشعور القوي بألم الاستعباد المتوقع الذي استوى فيه النساء مع الرجال ، فكان عوناً لهم في ميادين القتال ، فليعتبر قومنا ان كانوا يشعرون ، او ليموتوا ليحي الأصرأء والحاكون ، نم قد دب فيهم شيء من الشعور نفرد له مقالة في جزء آخر